الدور الثقافي للمشيخة الأندلسية بحاضرة بجاية خلال القرن السابع الهجري/14م

د.سعداني محمد
جامعة أحمد بن بلة وهران 1

المخلص:

تسعى هذه الدراسة إلى إبراز الدور الثقافي للشخصيات العلمية الأندلسية المقيمة بمدينة بجاية خلال القرن السابع الهجري الموافق للقرن الثالث عشر ميلادي، انطلاقا من تتبع إسهاماتها في مجال العلوم الدينية و العلمية و في الحياة الأدبية و في ميدان التعليم والتدريس.

Summary:

This study seeks to highlight the role of cultural and scientific personalities resident Andalusian city of Bejaia during the seventh century AH, corresponding to the thirteenth century AD, from tracking contributions in the field of religious sciences and in scientific and literary life and in the field of education and teaching.

تعتبر مدينة بجاية* من الحواضر الكبرى في بلاد المغرب خلال القرن السابع الهجري في العهد الحفصي،وهذا بسبب موقعها الجغرافي الهام الرابط بين العدوة المغربية والعدوة الأندلسية،ممّا جعلها قبلة لكثير من الشخصيات الأندلسية المهاجرة من بلادها بدافع البحث عن مكان آمن ومستقر، فكان نتيجة ذلك تواجد جالية كبيرة من الأندلسيين المهاجرين بهذه المدينة.

و من البديهي أن الهجرة الأندلسية إلى حاضرة بجاية الحفصية أدت إلى وجود تأثير أندلسي على المجتمع البجائي سياسيا و ثقافيا و اجتماعياو اقتصاديا و فنيا وعمرانيا، وقد يكون هذا التأثير سطحيا محدودا وقد يكون عميقا شاملا،ولاستشكاف هذا التأثير الأندلسي بنظرة أعمق و أدق تحتم علينا التركيز في هذه الدراسة على الناحية الثقافية دون غيرها من النواحي،والتي بدورها تتضمن عدة مجالات معرفية وأدبية وفنية متعددة و متنوعة.

و عليه، فإنّ تواجد جالية كبيرة من الأندلسيين المهاجرين في حاضرة بجاية الحفصية خلال القرن السابع الهجري يطرح عدة إشكاليات معرفية على الباحث في التاريخ الثقافي لهذه المدينة، ولعل أولها

التساؤل عن الدلالات التاريخية ومن خلال النصوص الموثقة التي تكشف لنا دور الجالية الأندلسية العميق في إثراء الحياة الثقافية بحاضرة بجاية الحفصية؟ وهذا يستتبع تساؤلا آخر، وهو هل التأثير الثقافي للأندلسيين كان محصورا في مجال واحد من المجالات الثقافية أم أنه شمل كل الحقول المعرفية والأدبية والدينية والفنية؟و بعبارة أخرى هل كان الدور الثقافي للمهاجرين بحاضرة بجاية الحفصية خلال القرن السابع الهجري يتجلى في كل النواحي الثقافية أم أنه انحصر فقط في تخصص معين من التخصصات العلمية؟

بداية،يلاحظ أنّ الحضور الأندلسي في المشهد الثقافي بمدينة بجاية خلال القرن السابع الهجري يطغى بقوة على النواحي الحضارية الأخرى،وكلما تتبع الباحث دور المشيخة الأندلسية بحاضرة بجاية الحفصية سيتأكد أنّ الحياة الثقافية كانت زاخرة وثرية بعدد كبير من العلماء و الطبقة المثقفة التي كانت من الطراز الرفيع و المؤثر.

و يتجلى هذا الدور الثقافي للمشيخة الأندلسية من خلال كتاب الغبريني[1]**"عُنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية"**[2]، الذي تضمن التعريف بشخصيات علمية عديدة من الجالية الأندلسية التي عاصرت القرن السابع الهجري،إذ بلغ عددهم ما يفوق تسعة وعشرين عالما،مابين فقيه وأصولي وأديب و شاعر ولغوي ومؤرخ و كاتب و طبيب، وغيرها من التخصصات العلمية.

و الملاحظ، أنّ تراجم هؤلاء الأندلسيين تأتي في المرتبة الثانية من حيث الكم بعد البجائيين والجزائريين.وبسبب هذا الحضور الأندلسي النوعي والعددي بحاضرة بجاية،ظهر فيها كما أطلق عليه الغبريني **"الجماعة الأندلسية"**وكان يرأسها ابن محرز البلنسي الذي كان أديبا كبيرا،فكان بيته شبه ناد ثقافي تحضره شخصيات علمية كبيرة أندلسية استوطنت بجاية[3].

ومن ثم،فإنّ تأثير المشيخة الأندلسية في الحياة الثقافية بحاضرة بجاية الحفصية سيكون موضوعا لهذه الدراسة.و لا شك سيكون الاعتماد في المقام الأول في استكشاف معالم و مظاهر هذا

[1] عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة،تحقيق:عبد السلام الشدادي،خزانة ابن خلدون،بيت الفنون والعلوم والآداب،الدار البيضاء،ط1،سنة 2005،ج2،ص 359.

[2] محمد عباس الباز،مباحث في علم القراءات مع بيان أصول رواية حفص،دار الكلمة،القاهرة،مصر،ط1،سنة1425ه/2004،ص39.

[3] ينظر السيد رزق الطويل،مدخل في علم القراءات،المكتبة الفيصلية،ط1،سنة1415ه/1985م،صص 41،42.

التأثير انطلاقا من كتاب "عنوان الدراية" بوصفه شاهدا صريحا على الحضور المكثف للأندلسيين في تنشيط الفضاء الثقافي بمدينة بجاية في العهد الحفصي.

ومن الواضح أنّ من ترجم لهم الغبريني من العلماء الأندلسيين الوافدين على بجاية،قد برعوا في عدة علوم و بلغوا القمة في أنواع من النثر والشعر،و مارسوا مهنة التدريس ،وتخرج على أيديهم عدد من العلماء الكبار،ولهم مصنفات كثيرة وقيمة،وبعضهم كان له تخصص في جانب من العلوم النقلية أو العلوم العقلية.وفي هذا السياق، سنتعرف على بعض العلماء الأندلسيين الذين استوطنوا حاضرة بجاية،وساهموا في إثرائها حضاريا في مجالات متعددة من المعرفة.

أولا_في المجال الديني:

ويتضمن كل ما يتعلق بالعلوم الدينية نقلا أو عقلا،رواية أو دراية، كالفقه وأصول الفقه وأصول الدين و علوم الحديث وعلم القراءات و المنطق والتصوف وغيرها.

1_ علم القراءات: وهو صنف من أصناف العلوم النقلية[1]،و المراد به"علم يعرف كيفية النطق بالكلمات القرآنية، وطريق أدائها اتفاقا واختلافا مع عزو كل وجه لناقله."[2] وترجع أهمية هذا العلم إلى كونه يدور حول حفظ القرآن الكريم من التحريف والتغيير،ولأنّه يتضمن عدة علوم نافعة كعلم

[1] **مُجَاهِد العَامِري:**"(000 - 436 هـ = 000 - 1044 م)مجاهد بن يوسف (أو عبد الله) بن علي العامري، بالولاء، أبو الجيش: مؤسس الدولة العامرية في دانية Denia وميورقة Majorque وأطرافهما، رومي الأصل. ولد بقرطبة. ورباه المنصور بن أبي عامرمع مواليه، فنسب إليه، ولما كانت فتنة " البربر " خرج مجاهد من قرطبة، وتبعه جمع من موالي ابن أبي عامر، وبعض جيش الأندلس، فدخل بهم طرطوشة، وانتقل إلى دانية (على ساحل البحر الرومي) فاستقل بها (سنة 412 هـ واستولى على الجزائر القريبة منها، وتلقب بالموفق بالله، وغزا الإفرنج بالأساطيل في جزيرة سردانية، فغلب على كثير منها. ودامت له الإمارة إلى أن توفي. وكان حازما يقظا شجاعا، عارفا بالأدب وعلوم القرآن، نعته بعض مؤرخيه بفتى أمراء دهرا وأديب ملوك عصره. وهو من ملوك الطوائف بالأندلس بعد انقراض الدولة الأموية ."الزركلي،الأعلام،ج5،ص278.

[2] **أبو عَمْرو الدَّاني:**"(371 - 444 هـ = 1053 981 م)عثمان بن سعيد بن عثمان، أَبُو عمرو الداني، ويقال له ابن الصير في، من موالي بني أمية: أحد حفاظ الحديث، ومن الأئمة في علم القرآن ورواياته وتفسيره. من أهل دانية " " Denia بالأندلس.دخل المشرق، فحج وزار مصر، وعاد فتوفي في بلده. له أكثر من مئة تصنيف، منها " التيسير - ط " في القراآت السبع، و " الإشارة - خ " قراآت، و " المقنع - ط " في رسم المصاحف ونقطها، و " الاهتدا في الوقف والابتدا - خ " و " الموضح المذاهب القراء - خ " صغير، و " جامع البيان - خ " في القراآت، و " طبقات القراء " وغير ذلك."الزركلي،الأعلام،ج4،ص206.

القراء والترجمة لهم،والعلم برسم المصحف،والصورة الخطية التي وافق عليها عثمان ﷺ وكتب بها المصاحف،وعلم توجيه القراءات والعلم بها[1].

وقد ذكر ابن خلدون في مقدمته أنّ علم القراءات لقي عناية فائقة و تأليفا كثيرا و ازدهارا لافتا في بلاد الأندلس، وذلك بفضل مجاهد[2] من موالي العامريين، حين ملك شرق الأندلس،وصارت له بها إمارة،فحث على الاهتمام بهذا العلم و شجع عليه،فكثر العلماء المهتمون به،وعلى رأسهم عالم القراءات الأشهر أبو عمرو الداني[3]،فكان لا ينافس ولا يفوقها في الإحاطة بها.واعتمد العلماء على كتبه وبالأخص كتابه "التيسير"،فجاء من اختصرها في نظم لتسهيل حفظها،وهوالإمام القاسم بن فِيرُّه الشاطبي[4]،فصار المتعلمون من الكبار والصغار في بلاد الأندلس والمغرب يتناقلون قصيدته .[5].

وهكذا، كان للأندلسيين دور كبير في تعميق علم القراءات و نشره و إثرائه في بلادهم.ومن هنا، فإنّ للمشيخة الأندلسية بحاضرة بجاية الحفصية إسهامها الأكبر في هذا العلم الجليل تأليفا و تدريسا.وهذا ما سنلاحظه من خلال الوقوف على الشخصيات العلمية المتخصصة في هذا العلم، والتي صارت مرجعا فيه.

من هؤلاء الأندلسيين العارفين بعلم القراءات ،والذين أفادوا بعلمهم أهل بجاية ومن حولها من المدن المغربية **محمد بن صالح بن أحمد الكناني الشاطبي** ويكنى بأبي عبد الله، أصله من مدينة شاطبة،ولد بها سنة614هـ/1218م،هاجر إلى المغرب الأوسط،واستوطن حاضرة بجاية،و كان له اتصال بعدد من كبار العلماء في الأندلس والمغرب[6]. وصفه من ترجم له بأنّه :" المحدث الخطيب بجامع بجاية مدة ثلاثين سنة لم تفته فيها جمعة."[7] وبأنّه :"الشيخ الفقيه... الأستاذ المقرئ الصالح...روى

---

[1] **القاسم بن فِيرُّه الشاطبي:**"(538 - 590 هـ = 1144 - 1194 م)القاسم بن فِيرُّه بن خلف بن أحمد الرعينيّ، أبو محمد الشاطبي: إمام القراء. كان ضريرا.ولد بشاطبة (في الأندلس) وتوفي بمصر. وهو صاحب " حرز الأماني - ط " قصيدة في القرآت تعرف بالشاطبية. وكان عالما بالحديث والتفسير واللغة."الزركلي،الأعلام،ج5،ص180.

[2] ابن خلدون،المقدمة،ج2،ص 362.

[3] الغبريني،عنوان الدراية،صص107،104.

[4] أبو العباس أحمد بن قنفذ القسنطيني،الوفيات،دار الآفاق الجديدة،بيروت،لبنان،ط4،سنة 1403هـ/1983م ،ص 335.

[5] الغبريني،عنوان الدراية،ص104.

[6] المصدر نفسه،ص104.

[7] ابن قنفذ،الوفيات،ص335

ودرس واستجاز وأجاز،وروى وقرأ واستمتع واستنفع به خلق كثير."[1] وكان واسع المعرفة بعلم القراءات موصوف بالإتقان فيها والإجادة،وله رواية للحديث متسعة وعالية[2]،توفي سنة 699هـ/1300م[3].

و ممن ذكرهم الغبريني في عنوان الدراية مؤكدا على سعة علمهم بالقراءات **أحمد بن محمد بن حسن بن محمد بن خضر الصدفي الشاطبي**،المكنى بأبي العباسو هو الموصوف بـ:" الشيخ الفقيه المقرئ المحصل الراويةالضابط المتقن المجود."[4] أصله من شاطبة،برع في **علم القراءات** و رواية الحديث،وكان لا يجيز إلاّ بعد التحصيل المتقن الجيد، ،و كان له اتصال بعدد من علماء بجاية.وقد كان الغبريني من تلاميذه حيث ذكر عن شيخه أنّه كان عارفا بعلم القراءات معرفة واسعة،وما رأى أتقن ولا أضبط منه فيها ، وقد اعتنى بفن مهم من فنون القراءات،هو فن الرسم المتعلق بـ"أوضاع حروف القرآن في المصحف ورسومه الخطّيّة."[5] فألّف فيه كتابا،وله كتب أخرى في ضبط رواية ورش، ورش، وما يتعلق بها من أحكام.وافته المنية سنة 674هـ1276م[6].

و من المعروفين أيضا بعلمهم الواسع و إتقانهم لعلم القراءات **سعيد بن علي بن محمد بن عبد الرحمن بن زاهر الأنصاري البلنسي**، ويكنى بأبي عثمانوهو من أهل بلنسية ببلاد الأندلس، وُلد بها سنة 577هـ،له معرفة واسعة بعلم القراءات،وبعد استقراره ببجاية جلس للإقراء،وقد استفاد منه الكثير،وكان له عناية بالقرآن قراءة ورواية وتفهيما وتعليما،وافته المنية سنة 654هـ/1256م[7].

2_علوم الحديث: المراد بها:" إسناد السّنّة إلى صاحبها والكلام في الرّواة النّاقلين لها ومعرفة أحوالهم وعدالتهم ليقع الوثوق بأخبارهم بعلم ما يجب العمل بمقتضاه من ذلك، وهذه هي علوم الحديث."[8] وقد صنفها الغبريني ضمن علوم الرواية[1].

---

[1] الغبريني،عنوان الدراية،ص108.

[2] ابن خلدون،المقدمة،ج2،صص363،362.

[3] ينظر الغبريني،عنوان الدراية،ص111.

[4] المصدر نفسه،ص245.

[5] ابن خلدون،المقدمة،ج359،2.

[6] ينظر الغبريني،عنوان الدراية،صص 311،309.

[7] محمد بن محمد بن عمر بن علي ابن سالم مخلوف،شجرة النور الزكية في طبقات المالكية،علق عليه:عبد المجيد الخيالي،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،ط1،سنة 1414هـ/2003،ج1،ص279.

[*] **أبدة**: بالضم ثم الفتح والتشديد: مدينة بالأندلس من كورة جيّان. . صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق القطيعي البغدادي الحنبلي،مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجيل،بيروت،لينان،ط1،سنة 1412،ج1،ص10.

لقد زخرت حاضرة بجاية في العهد الحفصي بعدد من علماء الحديث الكبار الموصوفين بالإتقان والإجادة،و منهم **محمد بن أحمد بن عبد الله الإشبيلي**،يُعرف بابن سيد الناس،ويُكنى بأبي بكر[2]، وهو من أبدة[3]* بالأندلس[4]،وكان عالما بالحديث وعلومه وحافظا له،عارفا برجاله وبأسمائهم و تاريخهم،توفي سنة 959هـ/1552م[5].

و من الشخصيات الأندلسية العلمية التي كان لها إسهاماتها في علوم الحديث وروايته **أبو زكرياء اللقنتي الأندلسي**، رحل من الأندلس إلى حاضرة بجاية، وهو من جمع بين الفقه ورواية الحديث،و قد أقرأ و أخذ عنه العلم كبار العلماء منهم شيخ الغبريني الفقيه أبو محمد عبد الله بن عبادة،وقد جلس بالجامع الأعظم بمدينة بجاية لتدريس الإقراء،وقد وصلت شهرته إلى السلطان الحفصي فاستدعاه للاستفادة من علمه[6].

ومن علماء الجالية الأندلسية بحاضرة بجاية الذين عُرفوا أيضا برواية الحديث والرسوخ بعلم الحديث **مُحَمَّد بن مُحَمَّد بْن أَحْمَد بْن عَبْد الرَّحْمَن بن سُلَيْمَان الزُّهْرِيّ**،أصله من بلنسية، و يكنى بأبي بكر و هو معروف بِابْن مُحرز وَكَانَ بَيتهمْ فِي القديم يُعرف بِابْن القح ،كانت ولادته سنة 569هـ/1174م[7]،وهو من علماء الحديث الموصوف بالحفظ والرواية،أخذ العلم عن كبار العلماء ببلده الأندلس،وبالمغرب والمشرق،ثم دخل بجاية واستوطنها في حدود سنة 640هـ/1243م،وكانت له مكانة كبيرة في حاضرة بجاية،وكان مرجعا علميا في جميع العلوم،فكان الإقبال عليه كبيرا لأخذ علم الفقه وعلم الحديث وغيرها من العلوم عنه ،وكان جُل وقته للتدريس و التعليم والرواية[8].و ذكره المقري في "نفح الطيب" فقال:"وكان أحد رجال الكمال علماً وإدراكاً وفصاحة وحفظاً للفقه وتفنّناً في

---

[8] الغبريني،عنوان الدراية،ص85.

[1] المصدر نفسه،ص.246.

[2] ابن سالم مخلوف،شجرة النور الزكية،ص279.

[3]لغبريني،عنوان الدراية،ص224.

[4]ابن الأبار،التكملة لكتاب الصلة،تحقيق: عبد السلام الهراس،دار الفكر للطباعة،لبنان،سنة 1415هـ،1995مج2،صص 154،153.

[5] الغبريني،عنوان الدراية،صص242،241.

[6] المقري،نفح الطيب،ج2،ص66.

[7] ابن الأبار،التكملة لكتاب الصلة،ج2،ص154.

[8]الغبريني،عنوان الدراية،صص241.

العلوم ومتانة في الأدب، حافظاً للغة والغريب، وله شعر رائق، ودين متين. "[1] وقال عنه ابن الأبار:"وَكَانَ أحد رجال الْكَمَال علما وإدراكا وفصاحة مَعَ الْحِفْظ بالفقه والتفنن فِي الْعُلُوم والمتانة فِي الْآدَاب وَحفظ اللُّغَات والغريب وَله شعر رائق بديع سَمِعت مِنْهُ كثيرا وَأَجَازَ لي. "[2] وهذه شهادة ساطعة ساطعة تدل على مكانة ابن محرز العلمية و الأدبية وعلى معرفته الموسوعية الثرية.

و أورد الغبريني في كتابه"عنوان الدراية" أنّ ابن محرز كان يترأس مشيخة الأندلسيين ببجاية،فيجتمع عنده في بيته كبار علماء الأندلسيين الوافدين على بجاية[3]،لمناقشة قضايا العلم والفكر والأدب،فكأنّ بيته جمعية علمية أدبية اجتماعية فيها كثير من المحاورات المعرفية و الانشغال بواقع الجالية الأندلسية وهمومها.و كانت وافته سنة 655هـ/1257م[4].

و قد استقر بحاضرة بجاية عالم من علماء الحديث حافظ لأسانيده و عارف لمعانيه، وهو **سليمان بن علي الشلبي الأندلسي**،المكنى بأبي الربيع، المعروف بـ"كثير"[5].و ذكر الغبريني منزلته العلمية،فقال:"له علم بالحديث ومعرفة برجاله،حافظ لأسانيده محصل لمعانيه،من أهل الضبط والحفظ."[6] ووصفه المقري بأنّه:"الأديب المحدث."[7]،وتجدر الإشارة،إلى أنّ سنة ولادته ووفاته غير معلومتين.

3_ الفقه وأصوله: الملاحظ أنّ الشخصيات العلمية الأندلسية الوافدة على حاضرة بجاية التي ترجم لهاالغبريني في كتابه"عنوان الدراية" كانت في معظمها من الفقهاء،وقد ذكر أنّ بعضهم قد بلغ درجة الاجتهاد، ومنهم **محمد بن عبد الحق بن عمر الأنصاري الأندلسي** و **عبيد الله بن فتوح النفزي** من أهل شاطبة[8].ومن العلماء الأندلسيين الذين برعوا فيعلم الفقه وأصوله،نستحضر الأسماء التالية:

---

[1] صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي،الوافي بالوفيات،المحقق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث ، بيروت،لبنان، سنة 1420هـ- 2000م،ج1،ص 162.

[2] شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب،تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت ، لبنان ،ط1،سنة1997،ج3،ص566.

[3] الغبريني،عنوان الدراية،ص239.

[4] المقري،نفح الطيب،ج3،ص 566.

[5] الغبريني،عنوان الدراية،صص 176،85.

[*] **مَالقَة**: مدينة بالأندلس عامرة، من أعمال ريّة.صفي الدين،مراصد الاطلاع،ج3،ص1221.

[7] الغبريني،عنوان الدراية،ص100.

[8] ابن سالم مخلوف،شجرة النور الزكية،ج1،ص 286.

_**أبو العباس أحمد بن خالد:**أصله من مالقة* ببلاد الأندلس[1]،وُصف بأنّه:" الفقيه الأصولي المشارك المحصل،قرأ بالأندلس ومراكش و لازم عبد الله المؤمناني."[2] و اتصل بعدد من العلماء،وكان عالما في أصول الفقه،وفي أصول الدين،و له انتقادات على طريقة فخر الدين الرازي في إدخال المنطق في الأصلين،أصول الفقه وأصول الدين،وله مشاركة في الفلسفة.و كان تلاميذه يأخذون عنه العلم و يقرؤون عليه،و منهم الغبريني الذي قرأ عليه بعضا من كتب أصول الفقه[3]،توفي بمدينة بجاية سنة 660هـ/1261م[4].

_ **أبو الحسن علي الشهير بابن الزيات:** أصله من الأندلس،أخذ العلم بها،ثم رحل إلى بجاية واستوطنها. و يتميز بحفظه لمذهب مالك و تبحره فيه حيث كانت معرفته به في غاية الإتقان والإجادة،و صار مرجعا فيه،يجلس إليه طلبة العلم ويأخذون عنه فقه مذهب مالك،وقد درّس الفقه المالكي ببجاية،ثم بتونس بعد أن انتقل إليها،وبها وافته المنية[5]،سنة ولادته ووافته غير معلومة.

_**أبو محمد عبد الحق الأزدي الإشبيلي:** له في كل علم وفن نصيب،فهو من العلماء في علم الحديث، وفي علوم القرآن و علم الأصول، وعلم الرقائق والأذكار. وممّا يدل على إسهاماته في إثراء الحركة العلمية بحاضرة بجاية،روايته بموطأ الإمام مالك ،و برنامجه الذي أثنى عليه الغبريني وذكر أنّه يشتمل على مائتين واثنتين وعشرين كتابا كلها متصلة بإسناد إلى أصحابها،وقد أخذ عنه كبار العلماء من داخل بجاية وخارجها. و قد صنف كتابا وسمّاه بـ"كتاب الأعلام بفوائد الأحكام لعبد الحق الإشبيلي"،وافته المنية سنة 628هـ/1231م[6].

ثانيا_في المجال العلمي:

ويشمل التخصصات العلمية كالرياضيات والحساب والهندسة وعلم الهيئة والطب وما شابه ذلك.

برع **في الطبأبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الأموي**،المعروف بابن اندراس،أصله من مالقة،وفد إلى بجاية ،واستقر بها.و له معرفة بعلم العربية و علم أصول الدين،إلا أنّ العلم الذي برع

[1] الغبريني،عنوان الدراية،ص100.

[2] ابن سالم مخلوف،شجرة النور،ج1،ص 286.

[3] الغبريني،عنوان الدراية،ص178.

[4] المصدر نفسه،صص194،193.

[5] الغبريني،عنوان الدراية ،ص101.

[6] المصدر نفسه،ص101.

فيه أكثر هو علم الطب حيث توسع فيه ،و كان يقوم بتدريسه في بجاية[1].و ذكر الغبريني أنّه كان من جملة تلاميذه، وقرأ عليه أرجوزة ابن سينا وكليات القانون قراءة فيها إتقان و جودة[2].وكان من صفته أنّه لا يتسرع في الإجابة عن مسألة طبية حتى ينظر ويبحث فيها،وكان تخصصه طب الولادة ببجاية.و قد انتقل إلى العاصمة تونس باستدعاء من السلطان الحفصي المستنصر بعد ما بلغته مهارته في الطب،و جعله من أطبائه الخاصين به،و ضمه إلى مجلسه.و من مصنفاته نظم من الرجز ذكر فيه بعض الأدوية،ثم ألف نظما آخر في الأدوية المفردة من القانون.وكان يتسم بذكاء حاد ،و وافته المنية بتونس سنة 674هـ/1276م[3].

وكذلك ممن لهم مشاركة في علم الطب **أبو العباس أحمد بن خالد المالقي الأندلسي**[4].

ثالثا_في المجال التاريخي:

يبدو أنّ حاضرة بجاية حفلت بمجموعة من المؤرخين الأندلسيين، ممّا يدل على أهمية هذه المدينة كمركز جامع للمدارس العلمية في القرن السابع الهجري؛ ومنها المدرسة التاريخية الأندلسية، والتي تتكون من كبار المؤرخين الذين تركوا ثروة تاريخية مهمة.ولذلك نجد الغبريني في كتابه "عنوان الدراية" يدعو بعض من ترجم لهم من الأندلسيين بـ"التاريخي" لاهتمامهم بتدوين التاريخ.

ومن الذين أضفى عليهم الغبريني هذا الوصف نذكر **عبد الحق الأزدي الإشبيلي**، ويكنى بـ"أبي محمد"[5]. ويبدو أنّه من المؤرخين الأندلسيين الذين دونوا في التاريخ الإسلامي عموما، وتاريخ المغرب الإسلامي على الخصوص. و له تلخيص لتاريخ الطبري،و كتاب يتعلق بتاريخ قبيلة صنهاجة بمدينة بجاية وإفريقية سماه" النبذ المحتاجة في أخبار صنهاجة،بإفريقية وبجاية"[6]. و منهم أيضا **محمد بن أحمد أحمد اليعمري الإشبيلي**، والمكنى بأبي بكروقد أفرد له الغبريني ترجمة،ووصفه بالتاريخي[7].

ولعل من كبار المؤرخين خلال القرن السابع الهجري، وكان من المستوطنين لبجاية لمدة معينة، المؤرخ **محمد بن عبد الله بن أبي بكر ابن عبد الله بن أبي بكر، القضاعي، الأندلسي، البلنسي**،المكنى

[1] المصدر نفسه ،ص102.

[2] المصدر نفسه،ص100.

[3] الغبريني،عنوان الدراية ،ص197.

[4] المصدر نفسه ،صص194،193.

[5] المصدر نفسه،ص246.

[6] المقري،نفح الطيب،ج2،ص586.

[7] أبو العباس المقري التلمساني،أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض،تحقيق: مصطفى السقا،إبراهيم الإبياري،عبد العظيم شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،القاهرة،مصر،سنة 1358 هـ - 1939 م ،ج3،ص205.

بأبي عبد الله،والمعروفبابن الأبار، وهو من أهل بلنسية[1] .و قد كان سبب رحيله من بلده الأندلس، ما تعرضت له مدينته بلنسية من عدوان نصراني إسباني،إذ بأمر من أميرها ،بعثه في وفد لطلب النجدة من السلطان الحفصي أبي زكرياء،وأنشد أمامه قصيدته السينية المشهورة يستصرخه فيها،ولكنّ النجدة تأخرت،فاضطر أمير بلنسية إلى تسليم المدينة إلى النصارى الإسبان،فكان هذا سببا لعودة ابن الأبار إلى العدوة المغربية لاجئا مهاجرا هو و عائلته طلبا للأمان و بحثا عن مكان يستقر فيه[2].

و قد يكون تواجد ابن الأبار ببجاية، مرّ بمرحلتين:المرحلة الأولى عند هجرته من مدينته بلنسية بعد سقوطها،حيث اختار بجاية ليستوطنها دون غيرها من المدن عند لجوئه إلى العدوة المغربية، فاتجه إليها مباشرة دون أن يمر بمدينة مغربية أخرى، فكانت همزة وصل بين شرق الأندلس و المغرب الأوسط و الأدنى،فاستقبله أميرها ولي العهد الحفصي ابن أبي زكرياء.ولقد وجد فيها كل الترحاب والحفاوة والإكرام[3].ويبدو أنّه بقي فيها مدة ليست بالقصيرة ،ثم انتقل إلى تونس،التي كانت هدفه، ثم دخل في خدمة السلطان الحفصي وصار كاتبا[4].

و تتحدد المرحلة الثانية بانتقاله إلى بجاية بأمر من السلطان المستنصر الذي نفاه فيها.وقد أشار الغبريني إلى قرار النفي حين حديثه عمّا كتبه ابن عميرة المخزومي من رسائل،فقد بلغه أنّه"كتب عن المستنصر باستدعاء أبي عبد الله الأبار من بجاية. "[5]وكان ذلك سنة 657هـ/1259م[6].وقد ذكر ابن ابن خلدون رواية الإبعاد هذه وسببها فقال أنّه :"كانت لابن أبي الحسين فيه سعاية لحقد قديم، سببه أن ابن الأبار لما قدم في الأسطول من بلنسية نزل ببنزرت، وخاطب ابن أبي الحسن بغرض رسالته، ووصف أباه في عنوان مكتوبة بالمرحوم. ونبّه على ذلك فاستضحك وقال: إن أبا لا تعرف حياته من

[1] حميد طريفة،ابن الأبّار القضاعي و مدائحه في البلاط الحفصي،دراسة موضوعية فنية،بحث مقدم لنيل درجة الماجستر في الأدب المغربي القديم، جامعة الحاج الأخضر،باتنة،كلية العلوم الإنسانية،قسم اللغة العربية وآدابها،السنة الجامعية 1430هـ،1431هـ/2010،2009،ص 73.

[2] المرجع نفسه،ص73.

[3] الغبريني،عنوان الدراية،ص.251.

[4] المصدر نفسه ،ص252.

[5] المقري،أزهار الرياض،ج3،ص206.

[6] حسين مؤنس ، مقدمة المحقق ، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي،الحلة السيراء،تحقيق: حسين مؤنس،دار المعارف،القاهرة،مصر،ط2،سنة 1985،ج1،ص44.

موته لأب خامل. ونميت إلى ابن أبي الحسين فأسرّها في نفسه، ونصب له إلى أن حمل السلطان على إشخاصه من بجاية. ثم رضي عنه واستقدمه ورجّعه"[1] إلى مجلسه ومكانته في الدولة.

ويبدو أنّ مرحلة النفي الثانية، أطول من الأولى،إذ يصف ابن سعيد حال ابن الأبار حينما كان في بجاية،فقال أنّ:" أخلاقه لم تعِنه على الوفاء بأسباب الخدمة،فقلصت تلك النعمة،،وأخّر عن تلك العناية،وارتحل إلى بجاية،وهو الآن بها عاطل من الرتب،خال من حلى الأدب،مشتغل بالتصنيف في فنونه،متنفِل منه بواجبه و مسنونه،ولي معه مجالسات آنق من الشباب،وأبهج من الروض عند نزول."[2] وقد ذكر الغبريني أنّه تفرّغ في هذه المرحلة للإقراء والتدريس و الرواية.و كان من الشخصيات العلمية التي يتجمع حولها الطلبة، و يرحلون إليها لأخذ مختلف العلوم خاصة في علم الفقه و رواية الحديث وعلم القراءات[3]،فكان ضمن المشيخة الأندلسية الفاعلة ثقافيا و معرفيا في حاضرة بجاية الحفصية.

ويلاحظ أنّ مرحلة النفي كانت خيرا ونعمة على حاضرة بجاية، وعلى العلم وأهله،إذ في هذه الفترة أكمل كتاب"التكملة" و"الحلة السيراء"،و ربما إتمام هذين الكتابين المهمين تاريخيا وأدبيا و بقاء نسخ منهما بمدينة بجاية،كان سببا في نجاتهما من الحرق والإتلاف[4] الذي تعرضت له كتب ابن الأبار بأمر من السلطان المستنصر الحفصي الذي استشاط غضبا منه بسبب رفضه امتثال أوامره وتطاوله عليه بكلام وصل إليه،فأصدر أمرا بقتله و إحراق كتبه كلها ،وذلك في سنة658هـ/1260م[5].

و شهد لابن الأبار الدارسون للتاريخ الإسلامي في القديم والحديث بأنّه:"مؤرخ ثبت دقيق جدير بكل ثقة،أنّه حافظ فأوعى،وحفل صدره من العلم بالمغرب والأندلس وبتاريخ الإسلام عامة مالم يصل إليه إلا القلائل من علماء القرن السابع الهجري."[6]، وقال عنه الغبريني:"ولا يكاد كتاب من الكتب الكتب الموضوعة في الإسلام إلاّ و له فيه رواية إما بعموم أو بخصوص."[7] ولعل حضوره المعرفي

[1] الغبريني،عنوان الدراية،ص257.

[2] حسين مؤنس ، مقدمة المحقق ،ابن الأبار، الحلة السيراء،ج1، صص44،43.

[3] ينظر محمد شاكر،فوات الوفيات،تحقيق إحسان عباس،دار صادر،بيروت،لبنان،ط1،سنة 1974،ج3،ص405.المقري،نفح الطيب،ج591،590،2.المقري،أزهار الرياض،ج3،صص 206،205،204.

[4] حسين مؤنس ، مقدمة المحقق ، ابن الأبار،الحلة السيراء،ج1، ص8.

[5] الغبريني،عنوان الدراية،259.

[6] ينظر الغبريني،عنوان الدراية ،صص300،266.

[7] التنبكتي،أحمد بابا ،نيل الابتهاج بتطريز الديباج،إشراف وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، وضع هوامشه وفهارسه طلاب من كلية الدعوة الإسلامية،منشورات كلية الدعوة الإسلامية،طرابلس،ليبيا،ط1،سنة 1989،ص 80.

ونشاطه الثقافي بحاضرة بجاية الحفصية الحافل بالإنجازات العلمية مع غيره من العلماء قد أظهر أهمية الدور الذي قامت به المشيخة الأندلسية في إثراء التدوين التاريخي والمعرفي في ذلك العصر.

ويضاف إلى هذه الجماعة من المؤرخين **أبي الحسن علي بن مؤمن بن محمد بن علي الحضرمي** المعروف **بابن عصفور و أبي جعفر أحمد بن يوسف الفهري اللبلي الأندلسي**[1].و نستحضر أيضا **أبا العباس القرشي الغرناطي**،حيث كان يحفظ تاريخ الطبري،ويعتني بالرواية والبحث عن الأخبار،و معرفة أخبار الرجال سواء المتقدمين أو من المعاصرين له[2]،له مصنف في التاريخ عنوانه" المشرق في علماء المغرب والمشرق"،و وافته المنية سنة 692هـ/1293 م[3].

ومن ثم،فإنّ المتتبع للأندلسيين المستوطنين بحاضرة بجاية سيجد عددا من المهتمين بالتدوين التاريخي ،و المساهمين في نشر الثقافة التاريخية سواء عن طريق التصنيف أو الإقراء والإجازة والرواية.وهذا الأمر جعل من بجاية مركزا للمدرسة التاريخية الأندلسية خلال القرن السابع الهجري.

رابعا_في المجال الأدبي:

من الملاحظ أنّ بجاية الحفصية قد استقر بها عدد من أعلام الأندلس ،لهم تنوع في المعارف و تحصيل أنواع العلوم والفنون،فقد أورد الغبريني تراجم لهؤلاء الأندلسيين، وقد ذكر براعتهم في نظم الشعر و فصاحتهم في الخطابة ،و مهارتهم في النثر،و معرفتهم باللغة والنحو .كما أشار إلى أنّ منهم من غلب عليه وصف"الأديب"،و أبدع في فن الشعر و الكتابة.

و من الذين كانوا أعلاما للأدب والشعر و الكتابة في عصرهم،و شهد لهم العلماء بالنبوغ الأدبي،نستحضر أديبين اتخذا من بجاية الحفصية وطنا ثان لهما بعد الأندلس المنكوبة،وهما ابن عميرة المخزومي وابن الآبار البلنسي،فأولهما هو **أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسين بن عميرة المخزومي**،المكنى بأبي مطرف[4]، وولادته كانت بجزيرة شقر سنة 580هـ/1185م[5]، واستقر ببلنسية مدة من الزمن[6].ثم انتقل إلى مراكش ودخل في خدمة الخليفة الموحدي الرشيد.وبعد ذلك قصد ابن

[1] ابن سالم مخلوف،شجرة النور الزكية،ج1،ص284.

[2] ينظر الغبريني،عنوان الدراية،ص250.

[3] ا ينظر لمقري،نفح الطيب،ج1،315.

[4] ينظر الغبريني،عنوان الدراية،ص 250.

[5] ينظر المقري،نفح الطيب،ج1،ص314.

[6] ينظر الغبريني،عنوان الدراية،صص251،253.

السلطان أبي زكرياء الحفصي بحاضرة بجاية[1]،فاستوطنها،و بقي فيها مدة طويلة،فكان له نشاطه العلمي بها حيث أقرأ بها و جلس للتدريس،ثم انتقل إلى تونس بدعوة من أميرها الحفصي المستنصر بالله،وجعله من جلسائه المقربين إليه،وفقهاء دولته[2].و وافته المنية في شهر ذي الحجة سنة 658هـ/1260م[3].

و كان ابن عميرة المخزومي متمكنا من علم الحديث والإكثار من روايته بإتقان وضبط،وكان راسخ القدم متحكما في علم أصول الفقه[4]،ولكن اشتهر في عصره ببراعته الأدبية وعبقريته في الكتابة النثرية،فشهد له الجميع بذلك.و أطال لسان بن الخطيب الثناء عليه في إحاطته،ومن جملة ما قاله نقلا عن غيره:"ومال إلى الأدب فبرع فيه براعة عدّ بها من كبار مجيدي النّظم. وأما الكتابة، فهو علمها المشهور، وواحدها الذي عجزت عن ثانيه الدّهور،ولا سيما في مخاطبة الإخوان، هنالك استولى على أمد الإحسان، وله المطوّلات المنتخبة، والقصار المقتضبة. "[5]وبعدما بين مكانته الأدبية أبدى رأيه فيه بنظرة الأديب الناقد:"قلت: وعلى الجملة، فذات أبي المطرّف فيما ينزع إليه، ليست من ذوات الأمثال، فقد كان نسيج وحده،إدراكا وتفنّنا...قائما على العربية واللغة، كلامه كثير الحلاوة والطّلاوة، جمّ العيون، غزير المعاني والمحاسن، وافد أرواح المعاني، شقّاف اللفظ، حرّ المعنى، ثاني بديع الزمان، في شكوى الحرفة، وسوء الحظ، ورونق الكلام، ولطف المأخذ، وتبريز النثر على النظم، والقصور في السّلطانيات."[6] و نجد الغبريني يشيد أيضا بقدرته الفائقة في الكتابة الأدبية حتى غلب عليه ذلك، وصار لا يُعرف إلاّ بأدبه الرفيع الأنيق[7].

و قد أورد المقري كذلك أوصافا لعبقرية أبي عميرة الأدبية،فيقول عنه:"قدوة البلغاء، وعمدة العلماء، وصدر الجلّة الفضلاء... ونكتة البلاغة التي قد أحرزها وأودعها، وشمسها التي أخفت ثواقب

[1] ينظر المقري،نفح الطيب،ج1،ص 315.

[2] الغبريني،عنوان الدراية،ص251.

[3] لسان الدين بن الخطيب،الإحاطة في أخبار غرناطة،تحقيق:محمد عبد الله عنان،مكتبة الخانجي،القاهرة،مصر،ط2،سنة 1393هـ/1973م ،مج1،ص 174.

[4] المصدر نفسه، مج1،ص 174.

[5] الغبريني،عنوان الدراية،صص 250،251.

[6] المقري،نفح الطيب،ج1،ص 313.

[7] أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي الأندلسي، المغرب في حلى المغرب،تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف ،القاهرة،مصر،ط3،سنة 1955م،ج2،ص363.

كواكبها حين أبدعها، مبدع البدائع التي لم يحظ بها قبله إنسان، ولا ينطق عن تلاوتها لسان. "[1] و وصفه ابن سعيد بأنّه:"هُوَ الْآن عَظِيم الأندلس فِي الْكِتَابَة وَفِي فنون من الْعُلُوم."[2]وعليه،فإنّ تواجد ابن عميرة المخزومي الأندلسي بحاضرة بجاية لمدة ليست بالقصيرة قد كان له أثره العميق في تنشيط الحركة الأدبية والنهوض بها، وكذلك هو مؤشر على أهمية مدينة بجاية ثقافيا وحضاريا في ذلك العصر،إذ كانت ملتقى كبار الأدباء و العلماء من مختلف التخصصات والفنون.

و من الأدباء الذين بلغوا مرتبة عالية في عالم الأدب في تلك الفترة نذكر **ابن الأبار** الذي استوطن حاضرة بجاية لمدة طويلة، فهو:"ممن لا ينكر فضله،ولا يجهل نبله،له تآليف حسنة و نزعات في علم الأدب بارعة مستحسنة. "[3] و قد كان مؤرخا كبيرا و أديبا من الطراز العالي وشاعرا مبرزا مبرزا ،وامتاز بأسلوبه الأدبي الرصين الجميل الحامل لفحولة لا نجدها كثيرا بين معاصريه من الأدباء[4].و من ثم ،كان بمؤلفاته في ميدان الشعر والأدب والتاريخ نجما ساطعا في عالم الأدب والشعر[5]. والشعر[5].

ومن الأدباء الذين اعترف لهم القاصي والداني في عصرهم ببراعتهم الأدبية و عبقريتهم الشعرية **سليمان بن علي الشلبي**،والمكنى بأبي الربيع،والمشهور بكثير[6]العلياوي[7]،و هو معروف عند علماء عصره ببلوغ منزلة رفيعة في الأدب و قرض الشعر.

و قد أثنى عليه الغبريني صاحب "عنوان الدراية" كثيرا، و أشاد بموهبته الفذة و مهارته الفائقة في الفصاحة والبلاغة ،حتى قال أنّه سبق أهل عصره في المجال الأدبي.فـ" شأوه فيه لا يُدرك،سبق أهل

[1] الغبريني،عنوان الدراية،ص 259.

[2] حسين مؤنس ،مقدمة المحقق،ابن الأبار،الحلة السيراء،ج1، ص8.

[3] السعيد بحري،الشعر في ظل الدولة الحفصية،دراسة تاريخية فنية،بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي القديم،جامعة منتوري،قسنطينة، كلية الآداب و اللغات،قسم اللغة العربية،السنة الجامعية:1427،2007/1426،2006،ص169.

4 المقري،نفح الطيب، ج3،ص566

[5] ترجم له ابن سعيد باسم كثير العلياوي،نسبة إلى العليا،وهي من قرى شلب. ينظر المقري،نفح الطيب،ج3،ص 566، الهامش رقم 1. أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي الأندلسي، المغرب في حلى المغرب،تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف ،القاهرة،مصر،ط3،سنة 1955م ،ج1،ص398.

[6] الغبريني،عنوان الدراية،ص 239.

[7] يُنظر المصدر نفسه،ص 239.

الزمان وأربى،ولمثله في الفصاحة والبلاغة تحل الحبى."[1] ثم أورد ما سمعه عن شيخه أبي الحسن الحرالي الذي شهد بعبقرية "كثير" الأدبية و الشعرية، حيث أصبح الأدباء يحتّجون بشعره ،وذلك لما وصل إليه من مرتبة عالية في الفصاحة والبلاغة في فن النثر و الشعر.و كانت كتابته فيهما عفوية على البداهة والطبيعة، لا يتوقف و لا يتعثر،وكان كثير النظم للشعر،حيث ذكر الغبريني أنّ له قصيدة من خمسمائة بيت في غاية الإجادة والإتقان في اللفظ والمعنى، واصفا فيها حاله و معاتبا زمانه[2].

و قد وصف المقري سليمان بن علي الشلبي في نفح الطيب بأنّه" المحدث الأديب"[3] وأورد له أبياتا من الشعرو ترجم له أيضا ابن سعيد في "المغرب" وقال عنه:"أديب مَشْهُور فِي عصرنا كَانَ بإشبيلية ورحل إِلَى بجاية."[4] و أورد له أبياتا من الشعر تدل على براعته و بلاغته،ومنها قوله:

لَيْسَ المدامة مِمَّا أستريح لَهُ وَلَا مجاوبة الأوتار والنغم
وَإِنَّمَا لذتي كتب أطالعها وصارمي أبدا فِي نصرتي قلمي[5]

وقد عُرف عن هذا الأديب الأندلسي أنه كثير النقد للكُتاب والمؤلفين والمتكلمين[6]، وذكر ابن سعيد بأنّ "أكثر كلامه فيما لا يعنيه،"[7] لكثرة انتقاداته.ومن جملة انتقاده للشعر في عصره أنّه كان يقول:" شاعر أعم من شيء،يشير إلى أنّ الشعراء كثير ،و المرضي منهم قليل."[8] ولعل بسبب هذه الحدة الحدة في كلامه،حدثت جفوة بينه وبين أحد الأمراء في وقته،فانتقل من بجاية إلى منورقة،لاجئا إلى صاحبها أبي عثمان سعيد بن حكم[9]،فرحب به وأكرمه، وبقي هناك حتى وافته المنية[10].

[1] المقري،نفح الطيب،ج 3،ص566

[2] ابن سعيد المغربي الأندلسي، المغرب في حلى المغرب،ج1،ص 398.

[3] المصدر نفسه ،ج1،ص 398.

[4] الغبريني،عنوان الدراية،ص239.

[5] ابن سعيد، المغرب،ج1،ص398.

[6] الغبريني،عنوان الدراية،ص 239.

[7] ابن سعيد،المغرب،ج1،صص 399،398.

[8] الغبريني،عنوان الدراية،ص240.

[9] المصدر نفسه،ص271.

[10] ابن سالم مخلوف،شجرة النور الزكية،ج1، ص 282.

و من الذين اشتهروا بمعرفتهم بالأدب وفنونه في حاضرة بجاية في العهد الحفصي **عبد الله بن نعيم الحضرمي القرطبي**،ويكنى بأبي محمد،وأصله من قرطبة،نشأ في تونس،ثم استقر في قرطبة،وكانت وفاته بقسنطينة سنة 636هـ/1238م،وقد كان له علم واسع بالأدب مستبحرا فيه[1].

و يعد **ابن عصفور** ممّن اشتهر بعلم النحو و التأليف ،و وصفه ابن سالم مخلوف صاحب "شجرة النور الزكية"بالنحوي، وله تصانيف كثير منها كتابه في النحو و الصرف:"المغرب والممتع في علم التصريف".وافته المنية سنة 669هـ/1270هـ[2].

خامسا_في مجال التدريس والتعليم:

قد ساهمت المشيخة الأندلسية بحاضرة بجاية خلال القرن السابع في إثراء الحركة الثقافية من خلال ممارستها للتدريس والتعليم بطرق متنوعة و أساليب مختلفة،بحيث صارت بجاية منارة علمية تجذب إليها طلبة العلم من مختلف المدن المغربية،و محطة ينزل فيها العلماء لإلقاء دروسهم ،مثلما حدث للآبلي شيخ العلوم العقلية الذي عند عودته من تونس إلى حاضرة تلمسان الزيانية "مر ببجاية،ودخلها،فأقام بها شهرا،حتى قرأ عليه طلبة العلم بها مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه."[3] وهكذا،فإن مدينة بجاية كانت ملتقى العلماء و عاصمة للعلم والثقافة.

و من الأمور التي تبين دور المشيخة الأندلسية في ازدهار الحياة العلمية في حاضرة بجاية الحفصية، هو ما حوته بعض كتب "البرامج"* المتضمنة لأبرز الشيوخ الذين قاموا بمهمة تدريس العلوم في القرن السابع الهجري، وساهموا في نشر العلم وتخريج عدد من العلماء.وسأتطرق في هذا الصدد، إلى ثلاثة برامج لثلاثة من العلماء ،أحدهم رحل من المغرب الأقصى إلى بجاية طلبا للعلم وهو القاسم بن يوسف بن محمد بن علي التجيبي البلنسي السبتي[4]،والآخران استقرا في بجاية وكانا من مواطنيها،الأول هو الغبريني والثاني اللبلي الأندلسي.و لا ريب أنّ قراءة برامجهم ستكشف لنا درجة مساهمة المشيخة الأندلسية في تنشيط الحركة العلمية من خلال التدريس والتعليم.

---

[1] ابن خلدون، رحلة ابن خلدون،عارضها بأصولها وعلّق على حواشيها محمد بن تاويت الطنجي،دار الكتاب الحديث،القاهرة،الكويت،الجزائر،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،ط2،سنة 2005،ص.52

* البرامج:وهي تآليف خاصة يُسجل فيها العلماء رحلاتهم العلمية،ويُقيدوا أسانيدهم،ومروياتهم.وتسمى :"المعجم،المشيخة،الثبت،البرنامج،الفهرست،الفهرس،الفهرسة".محمد بوزيان بنعلي،تقديم،برنامج أبي جعفر اللبلي الأندلسي،أبو جعفر اللبلي الأندلسي،تحقيق: محمد بوزيان بنعلي،مطبعة اسبارطيل،طنجة،المغرب،ص5.

[3] عبد الحفيظ منصور ،مقدمة المحقق، برنامج التجيبي، القاسم بن يوسف التجيبي السبتي ،.ص5.

[4] الغبريني،عنوان الدراية،صص308،307.

ذكر الغبريني في آخر كتابه "عنوان الدراية" برنامج مشيخته،وقد سجل فيه أسماء شيوخه و العلوم التي أخذها عنهم.وقد قسم هذه العلوم إلى نوعين:علوم دراية وعلوم رواية؛فالنوع الأول يتضمن علم الفقه وعلم أصول الفقه و أصول الدين وعلم العربية والمنطق والتصوف.و من العلماء الأندلسيين الذين تتلمذ عليهم في هذا النوع من العلوم أبو محمد عبد الحق بن ربيع الأندلسي، فقد أخذ عنه علم الفقه والتصوف على طريقة أبي مدين شعيب،و ذكر طريقته في التدريس،وهي تقوم على البحث والمناقشة والمحاورة والتكرار وطرح الأسئلة وحلها.وقد درس علم الأصلين،أصول الفقه وأصول الدين والمنطق عن أبي العباس أحمد بن خالد المالقي،و قرأ عليه المستصفى والإرشاد،و أخذ علم العربية عن أبي عبد الله محمد بن صالح الكناني الشاطبي[1].

و أمّا علوم الرواية، فتشتمل على رواية كتب في علوم معينة بأسانيد متصلة،وهذه العلوم هي علوم التفسير وعلوم الحديث وعلوم الفقه وعلوم العربية وعلم التصوف والتذكير وعلم أصول الدين وعلم أصول الفقه.و شيوخه فيها خمسة،إلاّ أنّ ثلاثة منهم من أصل أندلسي،وهم أبو محمد بن الربيع الأنصاري،وأبو عبد الله الكناني و أبو العباس الصدفي[2].

و من العلماء الذين مروا بحاضرة بجاية طلبا للعلم في القرن السابع الهجري القاسم بن يوسف التجيبي السبتي،وأصله من المغرب الأقصى،وقد ألف برنامجا ذكر فيه مشيخته الذين حصل منهم العلوم خلال رحلته لطلب العلم من المغرب إلى المشرق.و قد ذكر في برنامجه شيوخه الذين استفاد منهم وجلس إليهم و درس عليهم. والملاحظ أنّ أبرزهم قد تكرر ذكره في كتابه و هو أبو عبد الله محمد بن صالح الكناني الشاطبي الأندلسي[3].وقد قرأ عليه بجامع بجاية الأعظم بطريق المناولة[4*].

و من الذين أخذوا العلم و درّسوه في بجاية أبو جعفر اللبلي الأندلسي الذي له برنامج ذكر فيه أنّه قرأ كل تصانيف السهيلي و أولها كتابه الموسوم بـ"الروض الأنف" من أبي الحسين أحمد بن محمد ابن السراج الإشبيلي أحد العلماء الأندلسيين المقيمين بحاضرة بجاية[5].

---

[1] المصدر نفسه ،ص 309.

[2] القاسم بن يوسف التجيبي،برنامج التجيبي،صص286،245،237،129،110،90،55،45،39،30،28.

[3] القاسم بن يوسف التجيبي،برنامج التجيبي،ص.90

[*] الْمُنَاوَلَةُ:"وَهِيَ أنْ يعطي االعالم كتابه إلى الطالب و يقول له: هذا روايتي عن فلان فاروه عنّي. عياض بن موسى اليحصبي السبتي، الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع، تحقيق:أحمد صقر،دار التراث،القاهرة،المكتبة العتيقة،تونس،ط1،سنة 1970/1379،ص79.

[5] أبو جعفر اللبلي الأندلسي،برنامج أبي جعفر اللبلي الأندلسي،ص52.

والذي نستخلصه من برامج هؤلاء العلماء الثلاثة أنّ بجاية كانت قبلة للعلماء وطلبة العلم من مختلف البقاع، و أنّ من أراد أن يتكون علميا ويحظى بمجالسة أكبر لعلماء ذلك العصر، فعليه بالرحلة إلى حاضرة بجاية.والأمر الثاني والمهم هو أنّ المشيخة الأندلسية بهذه المدينة كانت حاضرة بقوة و مؤثرة بشكل واضح.فجل المدرسين للعلوم النقلية أو العقلية،دراية أو رواية،من الجالية الأندلسية التي استقرت ببجاية بصفة دائمة أو مؤقتة.

ولابد أن نشير هنا إلى المشيخة الأندلسية المتواجدة بقوة وكثافة بحاضرة بجاية،إذ لم يقتصر تأثيرها على مستوى الحركة العلمية،بل يتعداه إلى مناهج التعليم،و منها طريقة تعليم الصغار القرآن الكريم،فقد ذكر ابن خلدون أنّ المغرب الأدنى يتفرد بطريقة في تعليم القرآن للصغار تشبه تماما طريقة أهل الأندلس،وسبب ذلك يعود إلى الحضور الكبير للمشيخة الأندلسية. "و أمّا أهل إفريقية، فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب، ومدارسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها. إلّا أنّ عنايتهم بالقرآن واستظهار الولدان إيّاه ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراآته أكثر ممّا سواه. وعنايتهم بالخطّ تبع لذلك. وبالجملة فطريقهم في تعليم القرآن أقرب إلى طريقة أهل الأندلس، لأنّ سند طريقتهم في ذلك متّصل بمشيخة الأندلس الّذين أجازوا عند تغلّب النصارى على شرق الأندلس واستقرّوا بتونس. وعنهم أخذ ولدانهم بعد ذلك."[1]ومن غير المستبعد أن يكون هذا التأثير الأندلسي في طريقة التدريس والتعليم قد وصل إلى مدينة بجاية التي تستوطنها أعدادا كبيرة من المهاجرين الأندلسيين .و هكذا،فإنّ التأثير الثقافي والمعرفي للمشيخة الأندلسية البجائية خلال القرن السابع الهجري كان حقيقة ملموسة وأمرا واضحا و عميقا.

[1] ابن خلدون،المقدمة،ج3،ص221.